معاني الفروسيّة في فنّ الغزل بين المشرق والأندلس
دراسة مقارنة

د. وفاء جمعة*

ملخّص

يحتلّ شعر الفروسيّة مكانة عالية عند العرب؛ لأنّه لسانٌ معبّر عن حالهم في أفراحهم وأتراحهم، والسّلاح المؤثر الذّائد عن القبيلة الذي لا تقلّ فاعليّته عن أدوات الحرب وفرسانها.

وتعدّ الفروسيّة والشّعر شيئاً واحداً لا يفصل بينهما، فما إن وجد الشّعر نجد للفروسيّة ذكراً فيه ولو كان عارضاً؛ لأنّ الفروسيّة ومضامينها جزء من حياتهم اليوميّة، فهي مغروسة في نفوسهم، اتّخذت من الشّعر جذوراً لها.

كما ارتبطت الفروسيّة بالغزل، وذلك لأنّ المرأة العربيّة تفضّل الفارس على غيره؛ فهو القادر على حمايتها والذود عنها، فالشّاعر الذي يتغزّل كان عليه أن يقرن ذلك بالحديث عن نفسه، وكرمه، وشجاعته؛ ليبيّن لمحبوبته أنّه أهل لها.

إنّ حبّ الفرسان من أعلى مراتب الحبّ، وغزلهم بعيدٌ عن الحسّيّة المبتذلة، تخالطه روح اللوعة والصّدق والانقياد للمحبوبة.

وظاهرة الخضوع والانقياد للمحبوبة، عرفت بالحبّ الفروسيّ، يقول ابن زيدون:

تِهْ أحتمِلْ واستطِلْ أصبِرْ وعزِّ أَهنْ ... وولِّ أُقبِلْ وقُلْ أسْمَعْ ومُرْ أُطِعِ

كلمات مفتاحيّة: الفروسيّة، الغزل، الأندلسيّون، المشارقة، التّروبادور.

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربيّة، كلّيّة الآداب، جامعة تشرين، اللاذقيّة – سورية.

The meanings of chivalry in the art of spinning between the Orient and Andalusia- A comparative study

D. Wafa'a Jouma'a *

Summary

Equestrian poetry occupies a high position among the Arabs; Because it is an expressive tongue about their situation in their joys and sorrows, and the influential weapon that exceeds the tribe, whose effectiveness is no less than the tools of war and its knights.

Chivalry and poetry are considered to be one thing and there is no separation between them. Because chivalry and its contents are part of their daily life, it is embedded in their souls, and it has taken its roots from poetry.

Equestrianism has also been associated with spinning, because the Arab woman prefers the rider over others. He is able to protect it and defend it, so the poet who flirts with it had to combine that with talking about himself, his generosity, and his courage; To show his beloved that he is worthy of her.

The love of the knights is of the highest ranks of love, and their flirtation is far from vulgar sensuality, mixed with the spirit of adoration, honesty and submission to the beloved.

The phenomenon of submissiveness and submission to the beloved is known as chivalrous love. Ibn Zaydun says:

be patient and be patient And say, I hear, and say, I obey

Keywords: equestrianism, spinning, Andalusians, Mashariqa, troubadour.

---

* Assistant doctor , faculty of art , Arabic department tishreen university , Lattakia , Syria.

مقدّمة:

الفروسيّة لفظة تدلّ على القوّة والشّجاعة، وهي من الصّفات التي يرجوها أيّ رجل عربيّ لما فيها من معاني الرّجولة والكرم والشّجاعة والإقدام...وتحتلّ مكانة عالية عند العرب، والفارس مقدَّم على الشّاعر عندهم غالباً، وهذا نابعٌ من طبيعة النّفس الإنسانيّة المجبولة على حبّ الشّجاعة والإقدام.

والفروسيّة ثابتة ومثبتة في الشّعر، فلا يكاد يخلو ديوان شاعر قديم منها، فإمّا أن يكون هو مدارها، أو يتحدّث عنها كونها صفة لاقت هوى في نفسه، فأشاد بها في شعره، ولا غرو في ذلك فالفروسيّة صفة تمثل الشّخصيّة العربيّة المتكاملة التي استطاع الشّعر أن يتوّجها ويخلّد ذكرها، فهو لسانها النّاطق لحالها، الواصف لفعالها[1]... هذا وقد كان الشّعر ملازماً للإنسان، يتوّج بطولاته على مرّ الأزمان، قال الجاحظ: "فكلّ أمّة تعتمد في استيفاء مآثرها، وتحصين مناقبها على ضرب من الضّروب، وشكل من الأشكال، وكانت العرب في جاهليّتها تحتال في تخليدها، بأن تعتمد في ذلك على الشّعر الموزون، والكلام المقفّى، وكان ذلك هو ديوانها"[2].

وقد ارتبطت الفروسيّة بالشّعر ارتباطاً وثيقاً؛ لذلك تعدّ عاملاً وغرضاً رئيساً في الشّعر منذ نشأته إلى عصرنا الحاضر، فالنّفس البشريّة تميل وترتاح لشعر البطولة والحرب، ترى فيه نصراً وعزّاً ومجداً، وعلاقتها بالشّعر علاقة ترابط بالأفكار والمفردات، وهذا التّرابط ممتدّ عبر الجذور التّاريخيّة، والعصور الأدبيّة؛ إذ اتّخذ الفرسان من الشّعر

---

[1] ينظر: بخيت بن عويد اللهيبي، منى. الفروسيّة في الشّعر بين أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ – دراسة موازنة، رسالة ماجستير، المملكة العربيّة السّعوديّة، جامعة أمّ القرى، 2008 م، ص1.

- بوزقزة، أمال؛ وعلالي، جوهر. الفروسيّة في الشّعر العربيّ – الأمير عبد القادر أنموذجاً، الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة، المركز الجامعي أكلي محمّد أولحاج، 2011–2012 م، ص2.
- مخيبر، روان. الفروسيّة في الشّعر العربيّ، موضوع، 13 مايو 2022 م https://mawdoo3.com.

[2] الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السّلام هارون، مصر، ط1، 1938 م، ج71/1 وما بعدها.

لغة لهم، فالشّاعر الفارس كان فارساً قبل أن يكون شاعراً، وليس بمستغرب أن يجمع الفارس بين الفروسيّة والشّعر، فاجتماعها دليلٌ على اكتمال القوّة الحركيّة والفكريّة لديه[1].

" فالفروسيّة فروسيّتان: فروسيّة العلم والبيان، وفروسيّة الرّمي والطّعان"[2]، وهذا ما عبّر عنه المتنبّي في قوله[3]: [من البسيط]

الخيـــلُ والليـــلُ والبيـــداءُ تعرفنـــي والسّـيفُ والـرّمحُ والقرطـاس والقلـمُ

ولن تظهر مدى قوّة العلاقة بين الفروسيّة والشّعر إلا من خلال التّعمّق في أبيات الشّعر التي قالها الشّعراء الفرسان؛ لأنّ الفارس الشّاعر هو الأقرب والأجدر بإدراك هذه العلاقة، أمّا الشّاعر غير الفارس فمهما برع في هذا الوصف فلن يصوّره كما فعل الفارس الذي خاض الحروب، وكان أحد أفرادها، فقد أعطى الشّعر للفارس القدرة على إبراز فروسيّته.

وقد ارتبطت الفروسيّة بالغزل؛ وذلك لأنّ المرأة العربيّة على وجه الخصوص تفضّل الفارس على غيره؛ لأنّه القادر على حمايتها والذّود عنها، فهي تطلب عنده الأمن والحماية[4].

" فالشّاعر الذي يتغزّل كان عليه أن يقرن ذلك الحديث عن نفسه، وكرمه وشجاعته؛ ليبيّن لمحبوبته أنّه أهلٌ لها، فالفخر والنّسيب يعدّان موضوعاً واحداً"[5].

وتزداد الفروسيّة سموّاً حين يجتمع الحبّ معها، فتظهر الغنائيّة والشّفافيّة والرّقّة، ويظهر الفارس المتمرّد متواضعاً ضعيفاً أمام المحبوبة فقط؛ لأنّ الفروسيّة حبّ، والحبّ مثلٌ رفيع يبتغيه الفارس، ورضا المحبوبة، أو رضا ذويها أمرٌ يسعى إليه الفارس.

---

[1] يُنظر: بخيت بن عويّد اللهيبي، منى. الفروسية في الشّعر بين أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ – دراسة موازنة، ص2.

[2] ابن قيّم الجوزيّة. شمس الدّين أبو عبد الله، الفروسيّة المحمّديّة، تح: أبي عبيدة مشهور، دار الأندلس، ط2، 1996 م، ص157.

[3] المتنبّي، أحمد بن حسين الجعفي. ديوان المتنبّي، دار بيروت للطّباعة والنّشر، بيروت – لبنان، 1983 م، ص332.

[4] يُنظر: بخيت، منى. الفروسيّة في الشّعر بين أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ، ص3-5.

[5] د. موافي، عثمان. في نظريّة الأدب من قضايا الشّعر والنّثر في النّقد العربيّ القديم، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، مصر، 1994 م، ص51.

إنّ حبّ الفرسان من أعلى مراتب الحبّ، وغزلهم بعيد عن الحسّيّة المبتذلة، تخالطه روح اللوعة والصّدق والعذريّة، فيخرج من أعماق النّفس متوّجاً بالعاطفة المتوهّجة ضمن قالب جميل، وبناء شعريّ فتّان[1].

ومن هنا جاء اختيارنا للبحث، محاولين رصد معاني الفروسيّة في الغزل بين المشرق والأندلس، متّكئين على المنهج الوصفي الذي يُعنى بدراسة الظّاهرة المقدَّمة للبحث، وتحليلها وتفسيرها، مستفيدين من المناهج الأخرى التي يتطلّبها البحث.

معاني الفروسيّة في الغزل المشرقيّ:

أعطى الشّعر للفارس القدرة على إبراز فروسيّته، فكثير من الفرسان لم يشتهروا لأنّهم فرسان، بل لأنّهم شعراء فرسان[2]، ومن خلال الاطّلاع على كتب التّراجم والتّاريخ والأدب نجد عدداً من الشّعراء الفرسان في العصر الجاهليّ والإسلامي، ولكنّ هذا العدد أخذ يقلّ تدريجيّاً مع مرور الزّمن لعدّة أسباب؛ منها:

- البعد عن النّشأة البدويّة التي كانت من أهمّ مقوّمات الفروسيّة، والاتّجاه إلى المدينة وحضارتها، والانشغال بالحياة المترفة وملذّاتها[3]،"فإنّ طبيعة البيئة، وطبيعة الحياة الاجتماعيّة جعلت العربيّ فارساً بالضّرورة؛ لأنّ الفروسيّة عنصرٌ مهمٌّ من عناصر حياة العربيّ ينشأ عليها، ويعايشها طيلة حياته "[4]، فمع تغيّر الحياة تغيّرت مفاهيم الفروسيّة لدى الشّعراء.
- اندماج العرب بغيرهم من الأمم أضعف لديهم بعض القيم التي كانت متداولة في شعر الفروسيّة، كنظم السّيادة مثلاً، ولم يعد للفروسيّة ذاك البريق الذي كان يلمع[5].

---

[1] ينظر: د. عمران، عبد اللطيف. شعر أبي فراس ودلالاته وخصائصه الفنّيّة، دار الينابيع، دمشق – سورية، 1999 م، ص115.

[2] ينظر: بخيت بن عويد، منى. الفروسيّة في الشّعر، ص5.

[3] المرجع السّابق، ص22.

[4] بومزار، فوزيّة. مفهوم الفروسيّة في التّراث العربيّ وأثره في القرون الوسطى في أوروبا، الموسوعة الصّغيرة، مطابع دار الشّؤون الثقافيّة العامّة، العراق، 1986 م، ص30.

[5] ينظر: بخيت بن عويد، منى. الفروسيّة في الشّعر، ص23-24.

ولعلّ من أهمّ الأسباب تلك النّظرة المتعالية عند بعض الفرسان الذين يرون أنّ الشّعر عاجز عن تصوير براعتهم وشجاعتهم، فلم يهتمّوا لأمره، بل لقد تغيّرت المفاهيم الشّعريّة عندهم؛ لأنّ الشّعر أصبح حرفة للتكسّب، وهم يترفّعون عن التّكسّب بشعرهم، كما أنّ أغلب الشّعراء اكتفوا بالمال عن الجهاد، فأصبحت الفروسيّة عند أكثرهم رمزاً للبطولة أكثر من كونها واقعاً[1].

ذكرنا سابقاً أنّ الفروسيّة ارتبطت بالغزل؛ لأنّهم يرون ذلك من تمام الرّجولة وكمالها، ولهذا نجد (عنترة بن شدّاد) قد ربط بين فروسيّته وغزله، لمعرفته بأهمّيّة هذا الرّبط وأثره في نفس محبوبته، فهو يظهر لها بأنّه أهل لها؛ لبراعته وفروسيّته وشجاعته[2]. يقول من القصيدة التي مطلعها[3] [من الكامل]:

طــالَ الثــواء علــى رســوم المنــزلِ ... بــين اللكيــك وبــين ذات الحرمــل...

أفَمِــنْ بكــاءِ حمامــةٍ فــي أيكــةٍ ... ذَرَفَت دموعك فـوق ظهـر المحمـل

كالــدُّرِّ أو فضَــضِ الجمــان تقطّعــت ... منــه عقائِــدُ ســلكِهِ لــم يوصــلِ

لمّــا ســمعْتُ دعــاءَ مُــرَّةَ إذ دعــا ... ودعــاء عــبسٍ فــي الــوغى ومُحَلِّــلِ

ناديــتُ عبســاً فاســتجابوا بالقنــا ... وبكــلِّ أبــيض صــارِمٍ لــم يَنْجَــلِ...

إنّــي امـرؤ مـن خيـر عـبسٍ منصـباً ... شَــطري وأحمــي ســائري بالمُنْصــلِ

إن يُلحَقــوا أكْــرُرْ وإن يُسْــتَلحَمُوا ... أَشْــدُدْ وإنْ يُلْفُــوا بضــنكٍ أنْــزِلِ...

ولقــد أبيــتُ علــى الطّــوى وأظلُّــه ... حتّــى أنــالَ بــه كــريمَ المأكــلِ

وإذا الكتيبــةُ أحجمَــت وتلاحظَــتْ ... ألفيــتُ خيــراً مــن مُعِــمٍّ مُخْــوَلِ

والخيــلُ تعلــم والفــوارسُ أنّنــي ... فرّقْــتُ جمعَهُــمُ بطعنــةِ فيْصَــلِ...

---

[1] المرجع السّابق، ص25-26.

[2] المرجع السّابق، ص33.

[3] ابن شدّاد، عنترة. ديوان عنترة بن شدّاد، تح: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط2، 2004 م، ص43-45.

أو قوله من معلّقته[1] [من الكامل]:

هـلا سـألت الخيـلَ يـا ابنـةَ مالـكٍ إنْ كنـتِ جاهلـةً بمـا لـم تعلمـي
إذ لا أزالُ علـى رحالـة سـابحٍ نهـدٍ تعـاوره الكمـاةُ مكلّـمِ
طـوراً يُجـرّد للطّعـانِ وتـارةً يـأوي إلـى حَصـدِ القِسِـيِّ عرمـرم
يخبـرك مـن شـهد الوقيعـةَ أنّنـي أغشـى الـوغى وأعـفّ عنـد المغـنم
ولقـد ذكرتـك والرّمـاح نواهـلٌ منّـي وبـيض الهنـد تقطـرُ مـن دمـي
فـودِدْتُ تقبيـلَ السّـيوفِ لأنّهـا لَمَعَـتْ كبـارقِ ثغـرِك المتبسّـمِ
أثنـي علـيّ بمـا علمـت، فـإنّني سـهلٌ مخـالقتي، إذا لـم أُظْلَـمِ
فـإذا ظلمـتُ فـإنّ ظُلمـيَ باسـلٌ مـرٌّ مذاقتـه كطعـمِ العلقـمِ...
فـإذا شـربتُ فـإنّني مُسـتهلِكٌ مـالي وعرضـي وافـرٌ لـم يُكلَـمِ
وإذا صـحوْتُ فمـا أقصّـرُ عـن نـدى وكمـا علمـتِ شـمائلي وتكرّمـي

فكما نلحظ في قصائد عنترة السّابقة معاني الفروسيّة التي يريد إظهارها للمحبوبة، فهو عزيز النّفس، أبيّ، صادق، وفي، لا يخضع للظّلم، ولا تهدأ ثائرته حتى يثأر لنفسه وكرامته، كريم، وهو لا يكتفي بتصوير صفاته الخلقيّة، بل يفخر أيضاً بشجاعته في الحروب، وببطولاته حتّى يُظهر لها أنّه يستحقّها؛ لبراعته وفروسيّته.

إنّ حبّ الفرسان من أعلى مراتب الحبّ، وغزلهم – معظمه – بعيد عن الحسّيّة المبتذلة، تخالطه روح اللوعة والصّدق، فيخرج من أعماق نفوسهم متوّجاً بالعاطفة المتوهّجة ضمن قالب جميل، وبناء شعري فنّان[2].

ومن ذلك قول أبي فراس الحمداني [3]، [من الطّويل]:

أراكَ عصـيَّ الـدّمع شـيمتُكِ الصّـبرُ أمـا للهـوى نهـيٌ عليـك ولا أمـرُ...

---

[1] الدّيوان، ص16-18.

[2] ينظر: د. عمران،عبد اللطيف. شعر أبي فراس الحمداني دلالاته وخصائصه الفنّيّة، ص291.

[3] الحمداني، أبو فراس. ديوان أبي فراس الحمداني، تح: د. خليل الدّويهي، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط2، 1994 م، ص162-166.

إذا الليـلُ أضـواني بسـطْتُ يـدَ الهـوى وأذْللـتُ دمعـاً مـن خلائقـه الكبـرُ
تكـاد تضـيءُ النّـار بـين جـوانحي إذا هـي أذكتهـا الصّـبابةُ والفِكـرُ
معلّلتـي بالوصـل والمـوتُ دونـه إذا مـتُّ ظمآنـاً فـلا نـزل القطـرُ...
وفيْـتُ وفـي بعـض الوفـاءِ مذلّـةٌ لآنسـةٍ فـي الحـيِّ شـيمتُها الغـدرُ...
تسـائلني مـن أنـت ؟ وهـي عليمـةٌ وهـل بفتـى مثلـي علـى حالـه نكـرُ
فقلـتُ: كمـا شـاءت وشـاءَ لهـا الهـوى قتيلـك!، قالـت: أيّهـم ؟ فهـم كثـرُ
فقلـتُ لهـا: لـو شـئت لـم تتعنّتـي ولـم تسـألي عنّـي، وعنـدّكِ بـي خبـرُ...
فـلا تنكرينـي يـا بنـةَ العـمّ إنّـه ليعـرِفُ مـن أنكرتِـهِ البـدوُ والحضـرُ
ولا تنكرينـي، إنّنـي غيـرُ منكـرٍ إذا زلّـتِ الأقـدام، واسـتنزل النّضـرُ
وإنّـي لجـرّارٌ لكـلّ كتيبـةٍ معـوّدةٍ ألا يُخِـلُّ بهـا النّصـرُ...
فأظمـأ حتّـى ترتـوي البـيض والقَنـا وأسْـغَبُ حتّـى يشـبعَ الـذئبُ والنّسـرُ

فالشّاعر الفارس لا يعدّ خضوعه لعاطفته وتغنّيه بالشّكوى واللوعة علامة ضعف ينال من اكتمال بطولته، بل كانت شجاعته في المعارك تكتمل برقّته في حبّه، ويبدو أنّ تقاليد الفروسيّة الشّعريّة قد رسّخت في النّفوس واستقرّت، وأصبح الشّعر الفروسي قضيّة فنّيّة، وعلاقة نفسيّة، وموقفاً إنسانيّاً [1].

وما يلفتنا في قصيدة (أبي فراس الحمداني) أنّه لم ينسَ مكانته، ومن يكون، فهو الفارس الأمير المعروف عند البدو والحضر، ونجد عنده بروز الأنا أو ظهور الذات، ولاسيّما في قوله (إذا متّ ظمآناً فلا نزل القطر)، فخضوعه لمن يحبّ، وتصويره لأشواقه الملتهبة لم ينسه أبداً الفخر بذاته، وبيان شجاعته والتّغنّي ببطولاته.

[1] ينظر: السّيّد، شاكر صبري محمّد. أشعار الغزل والوصف عند شعراء الفروسيّة العرب.

معاني الفروسيّة في الغزل الأندلسيّ:

انقسم الباحثون حول شعر الفروسيّة الأندلسي، فمنهم منكر لوجوده[1]؛ لأنّهم يرون أنّ الأندلسيين كانوا يتمتّعون بالكثير من الأمن والرّخاء وهذا ما انعكس في الموشّحات الأندلسيّة؛ وما أشاعته من جوّ المرح والطّرب، وفي شعر الطّبيعة بما احتضنته من مجالس الأنس واللهو.

ومؤيّد لوجوده؛ لأنّهم يرون أنّ الشّعر الأندلسيّ قد اهتمّ كثيراً بحياة السّلم والرّخاء، إلاّ أنّه لم يهمل الجانب الجادّ من حياة الأندلسيين الذي تمثّل في ذلك الصّراع المرير الذي خاضوه للمحافظة على وجودهم في الأندلس، وقد صوّر الشّعر هذا الجانب من حياة النّضال.

ربّما يكون هذا ظاهراً في شعر العصور الأولى، أمّا في عصر الطّوائف فقد لعبت الطّائفيّة السّياسيّة دوراً خطيراً في تفسيخ القيم العليا، فإذا ذهبنا إلى أنّ الظّواهر الفنيّة هي انعكاس للأوضاع الاجتماعيّة لعرفنا حينئذٍ تفسيراً لتلك الغزليّات والخمريّات التي تنشد الغيبوبة الشّعوريّة[2].

وقد أسفر قيام الطّوائف عن تكريس الطّائفيّة السّياسيّة، فقد توزّعت الأندلس ثلاث مجموعات من الممالك عربيّة وصقلية وبربريّة... ومن مظاهر التّرف الزّائد المقترن بالطّائفيّة محاولة اجتذاب الشّعراء، ليكونوا بطانة تتغنّى بفضائل هذا أو ذاك، كما اهتمّ ملوك الطّوائف بالعمائر والإنشاءات التي تخلّد ذكراهم[3].

إنّ هذا الرّبط بين حياة التّرف الأسطوري وبين الصّور الشّعريّة أمر ضروري؛ لأنّه يكشف عن الفراغ الرّوحي الذي عاش فيه هؤلاء المترفون الذين تخلّوا عن القضايا

---

[1] ينظر: ابن سلامة. الرّبعي، من شعر الفروسيّة في الأندلس، مجلّة جامعة قسطنطينيّة للعلوم الإنسانيّة، العدد الرّابع، ص50-51.

فقد اتّفقت الآراء على أنّ الأندلس كانت خالية من الشّعراء الفرسان. وأنّ شعر الحماسة فيها لم يتجاوز المدح ووصف المعارك..

[2] ينظر: د. محمّد سلامة. يسري، الأدب الأندلسيّ – صور فنيّة واجتماعيّة، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة – مصر، ص30.

[3] كحيلة. عبادة، أندلسيّات، القاهرة – مصر ، ط2، 2001م، ص31.

الأساسيّة وهي المحافظة على أرض الأندلس؛ لذلك كان إيقاع الحياة بطيئاً، بعد أن سكتت سنابك الخيل، وسكتت السّيوف في أغمادها، وتفرّغ النّاس للشّجار، ودمّرهم حبّ الدّنيا[1].

وكان من نتائج هذه الحياة المترفة اللاهية التي استسلم إليها قسمٌ كبيرٌ من الأندلسيين أن ضعفت لديهم الرّوح الحربيّة، فتمكّن أعداؤهم منهم[2].

ولعلّ من أهمّ الأسباب التي أدّت إلى انحسار الرّوح الحربيّة ظاهرة (الأنسيّة) التي تحدّث عنها (هنري بيريس) وأظهر أنّ ملامح الكرم والشّجاعة مشتركة بين الأبطال العرب، أمّا ما هو أندلسيّ خالص فهو إدراك وزن الأشياء الفكريّة وحبّها وحالة الرّاضي[3] "نموذج أشدّ دلالة بكثير، لقد اظهر هذا الطّفل المدلّل لدى والده (المعتمد) ميلاً قويّاً إلى القضايا الفكريّة، وكان يؤثّر دراسة النّحو والفقه، ومجالسة الشّعراء والفلاسفة والرّياضيين والفلكيين على خوض معامع الحروب"[4].

ويعدّ المثال السّابق أشدّ وضوحاً للأنسيّة كما كانت تفهم في ذلك العصر، وثمّة توازن منسجم بين العلوم والآداب، والفنّ يكمّل الشّعر، ويجيء البحث عن (الإنسان) في أوجه قدرته في الخطّ الأوّل من اهتمامات العصر، كما أصبحت الاهتمامات الحربيّة غير ذات أهميّة بالنّسبة إلى القضايا الثّقافيّة والتّأمّلات الفكريّة[5].

---

[1] ينظر: د. محمد سلامة يسري، الأدب الأندلسي – صور فنيّة واجتماعيّة، ص31.

[2] رجب باشا. جمانة، الأندلسيّة وأثرها في أدب الأندلس حتّى نهاية عصر الموحدين، جامعة حلب، 1996م، ص31.

[3] يقول ابن الأبّار:"كان الرّاضي من أهل العلم والأدب، كلفاً بالمطالعة والدّراسة) ابن الأبّار. أبو عبد الله محمّد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، الحلّة السّيراء، ت. د. حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، مصر ، ط2، 1985م، ص71.

[4] بيريس. هنري، الشّعر الأندلسي في عصر الطّوائف – ملامحه العامّة وموضوعاته الرّئيسيّة وقيمته التّوثيقيّة، تر: د. الطّاهر أحمد مكّي، دار المعارف، القاهرة – مصر ، ط1، 1988م، ص43. وقد ذكر المؤلّف حالة الرّاضي عندما تحدّث عن (الأدباء الإنسانيين) الذين لا تقف دراستهم عند دراسة المؤلّفين العرب وحدهم، وشعراء المشرق من بينهم بخاصّة، وإنّما تمتدّ لدراسة المؤلّفين اليونان، وإلى اللاتين عن طريق التّرجمة.

[5] ينظر: بيريس. هنري، الشّعر الأندلسيّ في عصر الطّوائف، ص43.

وتكشف لنا حالة الرّاضي بن المعتمد – وأشرنا فيما سبق – إلى أنّه أوضح الأمثلة للأنسيّة التي شهدها القرن الحادي عشر، فقد أراد والده أن يكلّفه بقيادة حملة حربيّة على مدنيّة (لورقة)، ولكنّ (الرّاضي) تظاهر بالمرض، وغاضت فيه العزّة العربيّة، وبين رعب القتال والافتتان بالدّراسة والقراءة، ففضّل الثّانية دون تردد.

وقبل والده العذر دون أن ينخدع بالأسباب التي أبداها ابنه... وقد سخر المعتمد من هذا الأمير المسالم بأبيات شعريّة ذات إيقاع ساخر، ولكنّها تلقي الضّوء على المزاج الجديد، الذي سوف يصبح – فيما يبدو – السّائد بين الأجيال الجديدة من الأمراء الأندلسيين[1] خلال النّصف الثّاني من القرن الحادي عشر، يقول من مجزوء الكامل[2]:

المُلْـــكُ فـــي طـــيِّ الـــدّفاتر فتخـــلَّ عـــن قـــودِ العســـاكِرْ
طُـــفْ بالسّـــريرِ مُســـلِّماً وارجـــعْ لتوديـــعِ المنـــابِرْ
وازحـــفْ إلـــى جـــيشِ المعـــا رفِ تقهـــرِ الحبـــرَ المغـــامِرْ..
أولسْـــتَ رســـطاليس إن ذُكِـــرَ الفلاســـفة الأكـــابرْ
وكـــذاك إنْ ذُكِـــرَ الخليـــ ـــلُ، فأنـــتَ نحـــويٌّ وشـــاعرْ..
مـــن هـــرمسٌ مـــن سيبويـــ ـــهِ، مـــن ابـــن قُـــورك إن تنـــاظرْ
هـــذي المكـــارم قـــد حويْـــ ـــتَ، فكـــن لمَـــنْ حابـــاك شـــاكرْ
واقعـــد فإنّـــكَ طـــاعمٌ كـــاسٍ، وقـــل: هـــل مـــن مُفـــاخِرْ

لخّص لنا (المعتمد بن عبّاد) في الأبيات السّابقة صفات الفروسيّة الجديدة، ولا يخفى ما في هذه القصيدة من سخرية واضحة من ابنه، ولكنّها في الوقت نفسه أعطتنا فكرة واضحة عن المزاج الجديد السّائد لدى الأمراء الأندلسيين، بل إنّنا نلمح في البيت الثّاني تقديساً لهذه المعاني الجديدة، فالمعتمد يعلم تماماً قدسيّة هذه العلوم والمعارف عند ولده الرّاضي، (طف، توديع) والطّواف والوداع يكونان في الكعبة المشرّفة.

[1] ينظر: المرجع السّابق نفسه، ص379.

[2] ابن عبّاد، المعتمد، ديوان المعتمد بن عبّاد، تح: أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، بإشراف الدّكتور: طه حسين، المطبعة الأميريّة، القاهرة – مصر ، ص46-47.

وقد اندهش (الرّاضي) من إيقاع هذه الأبيات الظّريف، وهي أكثر إثارة ممّا يبدو في ظاهرها، فردّ عليه بقصيدة على الوزن نفسه، والقافية نفسها، منها[1]:

مـــولايَ قـــد أصـــبحت كـــافر بجميـــعِ مـــا تحـــوي الـــدّفاترْ

وفللْـــــتُ ســـــكّين الـــــدّوا ةِ وظللـــــت للأقـــــلامِ كاســـــرْ

وعلمـــــتُ أنّ الملـــــك مـــــا بـــــينَ الأســـــنّة والبـــــواترْ...

ربّما يكون الرّاضي صادقاً لحظة الكتابة، عندما يعلن أنّ مجد الحروب هو الشّيء الوحيد الجدير بأمير؛ ولكنّ الشّك يعترينا في أنّه تخلّى عن دراساته المحبّبة إليه.

أمّا الشّعراء الفرسان الأندلسيّون فقد كان شعرهم الفروسيّ كما في المشرق ممتزجاً مع الغزل، فها هو ذا الأمير عبد الرّحمن الأوسط الذي كان شاعراً فارساً . وقد قاد غزوة إلى أراضي جليقية، وطالت بها غيبته، فقال متشوّقاً إلى جاريته طروب، ومفتخراً بفروسيّته وحسن بلائه في الحروب من المتقارب[2]:

فقدتُ الهوى مذ فقدْت الحبيبا فمـــا أقطـــع الليـــلَ إلاّ نحيبـــا

وإمّـــا بـــدَتْ لـــيَ شـــمسُ النّهـــار طالعـــــةً ذكّرتنـــــي طروبـــــا

فيـــا طـــولَ شـــوقي إلـــى وجههـــا ويـــا كبـــدا أورثتهـــا نـــدوبا...

عـــداني عنـــك فـــرار العـــدا وقـــودي إلـــيهم لهامـــاً لهيبـــا

فكـــم قـــد تخطّيـــتُ مـــن سبســـبٍ وجـــاوزْتُ بعـــد دروب درويـــا

ألاقـــي بـــوجهي حـــرَّ الهجيـــر إذا كـــاد مـــن الحصـــا أن يـــذوبا[3]

---

[1] ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمّد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تح: د. حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الزّرقاء-الأردن، ط1، 1989م، ص117-119.
المقرّي. أحمد بن محمّد التّلمسانيّ، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، تح: د. إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت-لبنان، 1968م، المجلّد الرّابع، ص254-255.

[2] ينظر: د. ضيف. شوقي، تاريخ الأدب العربي – عصر الدّول والإمارات الأندلس، دار المعارف، القاهرة، مصر ، ص257.
– ابن سلامة. الرّبعي، من شعر الفروسيّة في الأندلس، ص53.

[3] ابن الأبّار، الحلّة السّيراء، ج1، ص114-115.

وكان الأمير محمّد بن عبد الرّحمن شاعراً فارساً أيضاً، كذلك مزج غزله ببيان شجاعته، وإن كنّا نجد عنده سلطان الهوى وفروسيّة العشق أشدّ تأثيراً فيه؛ يقول من الطّويل[1]:

قفلتُ فأغمدْتُ السّيوفَ عن الحرب وما أُغْمِدَتْ عنّي السّيوفُ من الحبِّ
صدرتُ وبي للبعد ما بي فزادني إلى الشّوقِ أشواقاً رجائي في القُربِ
أَحُلُّ شِدادي في السّرادق نازلاً وللشّوقِ عقدٌ ليس ينحلّ عن قلبي

لعلّ الجانب النّفسي في الأبيات الأندلسيّة، يؤثّر بشكل لافت في غزلهم، فهم في قلق دائم من فقدان أندلسهم الحبيبة بسبب الحروب الخارجيّة المتكرّرة التي كان يقوم بها الفرنجة من جهة، وبسبب الفتن الدّاخليّة من جهة أخرى؛ لذلك كنّا نلمح الرّوح الحربيّة في كثير من صورهم الغزليّة، بل كان الشّاعر يوغل أحياناً في هذا المنحى، فيحوّل مشهد الغزل إلى مشهد حربيّ يغصُّ بصور القتال وأدواته[2]، ومن هذه النّماذج ذكر قول ابن درّاج من الكامل[3]:

أوجفْتُ خيليَ في الهوى وركابي وقذفْتُ نبليَ بالصّبا وحرابي
وسللْتُ في سُبُلِ الغوايةِ صارماً عضباً ترقرقَ فيه ماءُ شبابي
ورفعت للشّوق المبرّح رايةً خفّاقةً بهوائجِ الأطرابِ
ولبسْتُ للوّام لأمة خالعٍ مسرودةً بصبابةٍ وتصابي..
فاسأل كميّ الوجد كيف أثرْتُهُ بغروبِ دَمع صائب النّسكابِ
واسأل جنودَ العذلِ كيف لقيتها في جحفلِ البُرَحاءِ والأوصابِ
ووقفتُ موقفَ عاشقٍ حلَّتْ له فيه غنيمةُ كاعبٍ وكعابِ

[1] المصدر السّابق نفسه، ص119-120.

[2] ينظر: رجب. جمانة، الأندلسيّة وأثرها في أدب الأندلس حتّى نهاية عصر الموحدين، المجلّد الثّاني، ص239.

[3] ابن درّاج. أبو عمر أحمد بن محمّد..، ديوان ابن درّاج، ت. د. محمود علي مكّي، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق – سورية، الطّبعة الأولى، 1961م، ص181-182.

ومن جهة أخرى نجد أنّ تعلّق الأندلسيّ ببيئته مسيطرٌ على وجدانه وعقله، فها هو ذا ابن عبد ربّه يصوّر المعترك بصورة طريفة تشير إلى ذوقه الحضري؛ يقول من الطّويل[1]:

ومعتــــرك ضــــنْكٍ تعاطَــــتْ كماتُــــهُ كــؤوسَ دمــاءٍ مــن كُلــىً ومفاصِــلِ

يــديرونها راحــاً مــن الــرّوحِ بيــنهم ببــــيضٍ رقــــاقٍ أو بِسُــــمرٍ ذوابــــلِ

وتُســــمِعُهُم أمُّ المنيّــــة وسْــــطها غنــاءَ صليل البيضِ تحت المناصلِ

فلون الدّم استدعى إلى خياله لون الخمر؛ فكأنّ الفرسان يتبادلون فيما بينهم كؤوسَ الخمر مترعةً، ولكنّها خمرة النّصر، فهي من الكلى والمفاصل، أو هي من الأرواح التي لاقت حتفها بسيوفهم ورماحهم.

وفي مجلس الشّراب هذا لابدّ من مغنيّة تغنّيهم فكانت الحرب هي المغنيّة، وقد كنّى عنها بأمّ المنيّة (أم الموت)، وما غناؤها إلا صليل السّيوف، فقد جعل الشّاعر المعركة المحتدمة مجلس شراب كؤوسه الخمر، ومغنّيته الحرب، وغناؤها صليل السّيوف[2].

نلمح في هذه الأبيات منعطفاً خطيراً لمفهوم الفروسيّة، وذلك بتأثير البيئة الحضريّة المترفة.. هذا التّحوّل أو هذه المعاني الجديدة للفروسيّة نجدها في غزل فرسانهم، فشخصيّة الشّاعر الفارس العاشق شخصيّة مزدوجة، فهو الشّجاع المقدام الذي لا يهاب الموت أمام أعدائه، ولكنّه في مواقف الهوى وأمام حبيبته وديع هادئ ضعيف... ومن ذلك ما قاله الحكم الرّبضي في جوارٍ غاضبْنه وهجَرْنه؛ من البسيط[3]:

قُضْبٌ مـن البـان ماسَـتْ فـوقَ كُثبـانِ أعرضْـنَ عنّـي وقـد أزمعـنَ هجرانـي..

ملكنَنـــي مِلْـــكَ مـــن ذلّـــتْ عزائمُـــهُ للحـــبِّ ذلَّ أســـيرٍ موثـــقٍ عـــانِ

---

[1] ابن عبد ربّه. ديوان ابن عبد ربّه، ت: د. محمّد رضوان الدّاية، دار الفكر، دمشق – سورية، الطّبعة الثّانية، 1987م، ص152.

[2] د. جمعة. وفاء، الشّعر الأندلسي (محاضرات ألقيت على طلاّب السّنة الثّالثة، قسم اللغة العربيّة، جامعة تشرين)، اللاذقية – سورية، 2019–2020 م، المحاضرة الثّانية.

[3] ابن الأبّار، الحلّة السّيراء، 50/1.

ولعلّ اللافت في غزل فرسانهم انتشار الغزل العفيف، أو تيار الغزل العذري.. هذا الغزل الذي يتسامى فيه الشّاعر عن الحسّ والمادّة إلى النّقاء والصّفاء والطّهر وكأنّه يحبّ محبوبته لمعاني الحبّ والوجد في ذاتها[1].

ثمّ نجد بعد ذلك عالماً فقيهاً"هو (أبو داود الأصفهاني) يؤلّف كتاب (الزّهرة) الذي يعدّه (ماسينيون) أوّل محاولة لوضع منهج للحبّ الأفلاطوني وكان أهل الظّاهر أو الظّاهريّون – وابن داؤود منهم – يجدون في هذا اللون من الحبّ الظّاهر عوضاً عن الحبّ الإلهي الذي كان مذهبهم ينكره وكانوا يطلقون عليه (الحبّ العذري).. ووجدت هذه الدّعوة صدىً كبيراً في قرطبة في عصر الخلافة، فألّف ابن فرج الجيّاني كتاباً[2] على مثال (الزّهرة) كتاب ابن داؤود، وكان شاعراً محسناً[3]، ومن شعره العذري قوله من الوافر[4]:

وطائعــة الوصــال عففْــتُ عنهــا ومــا الشّــيطان فيهــا بالمطــاعِ

بــدت فــي الليــلِ ســافرةً فباتــتْ ديــاجي الليــلِ ســافرةَ القنــاعِ...

فملّكــت النُّهــى جمحــات شــوقي لأجريَ فــي العفــافِ علــى طبــاعي

وبــتُّ بهــا مبيــت السّــقْبِ يظمــا فيمنعــه الكِعــامُ مــن الرّضــاعِ

كــذاكَ الــرّوضُ مــا فيــه لمثلــي ســوى نظــرٍ وشــمٍّ مــن متــاعِ

[1] ينظر: د. ضيف. شوقي، تاريخ عصر الدّول والإمارات الأندلس، ص256.

[2] غومس. إميليوغرسيه، الشّعر الأندلسي – بحث في تطوّره وخصائصه، تر: حسين مؤنس، مطبعة النّهضة المصريّة، القاهرة، مصر ، ط3، 1969م، ص79.

[3] ينظر: المرجع السّابق نفسه، ص80. صاحب الأبيات هو الأديب (أبو عمر أحمد ابن فرج الجيّاني) انظر ترجمته في مطمح الأنفس، ص332–336.

[4] ابن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التّأنس في ملح أهل الأندلس، ت. محمّد علي شوابكة، دار عمّار ومؤسسة الرّسالة، بيروت – لبنان، ط1، 1983م، ص335–336.

ابن سعيد، المُغرب في حُلى المغرب، ت. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر ، ط2، ص56.

ولســتُ مــن السّــوائمِ مُهْمــلاتٍ فأتّخــذَ الرّيــاض مــن المراعــي

يصف لنا الشّاعر جمال هذه المحبوبة الفتّان، وقد كانت طوع وصاله وحبّه، وكيف بات معها ليلة سافرة فاتنة.. ومع ذلك ظلّ معتصماً بالعفاف المفطور عليه، مترفّعاً بنفسه عن عالم الغريزة الحيوانيّة إلى عالم السّموّ والنّقاء والطّهر.

هذا الحب الأندلسي العفيف أو الرّوحي أثّر كثيراً في الأدبين الإسباني والفرنسي، وهو يتّضح عند الإسبان أشدّ الوضوح في قصّة (دونكيشوت) لـ (سرفانتس) وهو يذكر في سطورها الأولى أنّه يقصّها عن عربي.. ونشعر من خلال قراءتها كأنّما تجسّد في بطلها الفارس العاشق (دون كيشوت) الحبّ الرّوحي السّامي الأندلسيّ[1].

أمّا في جنوب فرنسا وشمال إسبانيا في القرون الوسطى فيظهر هذا التّأثير واضحاً في شعر شعراء (التّربادور) الذين كانوا يتجوّلون متغنّين بالشّعر العاطفي الذي يناجي المحبوبة، ويمجّدها، معلناً لها من خلال شعره استعداده للموت من أجل الحصول على نظرة منها.

هذا الشّعر الذي انتشر بين القرن الحادي عشر والثّالث عشر الميلادي في جنوب فرنسا (مقاطعة البروفانس) وشمال إسبانيا ثمّ في إيطاليا وفيما بعد في ألمانيا وإنجلترا، إذ ابتكر (التّربادور) شكلاً جديداً في الحبّ الفروسي الذي جعلوا منه جزءاً لا يتجزّأ من الفروسيّة، فلا حبّ فروسي من دون الشّعر، فهنا العلاقة الجدليّة ذات الأوجه الثّلاثة والتي صنعت ظاهرة شعر الفرسان وهي: الحبّ والشّعر والفروسيّة..[2].

إنّ هذا الإدراك الفريد للحبّ العفّ في الآداب الأوروبيّة إنّما ظهر في تلك الفترة بتأثير حب الفروسة العربي[3]. وما يهمّنا في بحثنا هذا، هو إظهار التّشابه في المضمون:

---

[1] ينظر: د. ضيف. شوقي، عصر الدّول والإمارات – الأندلس، ص262.

[2] ينظر: مهنّا. يسرى ناصر، التّأثير العربي على شعر التّربادور، الشّرق، موقع انترنت، 8/مارس/2015

[3] ينظر: د. هلال. محمد غنيمي، الأدب المقارن، دار العودة ودار الثّقافة، بيروت – لبنان، الطّبعة الخامسة، ص203–212.

تتكرّر معان مشتركة بين شعر (التّروبادور) والأشعار العربيّة، كوصف معاناة العاشق: فإنّ أغلب أشعار الأندلسيين تضمّ وتتطرّق إلى موضوع الهجر، وقسوة المحبوبة، وما يسبّبه الهجر للعاشق من هموم وسهد وهزال، وصبره على ظلم المحبوب[1].

ونجد هذا المعنى في قول (ابن عبد ربّه) في إحدى مقطوعاته؛ من الكامل[2]:

أسرفْتَ في قتلي بلا تِرَةٍ وسمعْتَ قولَ اللهِ في السَّرَفِ

إنّي أتوبُ إليك معترفاً إن كنْتَ تقبلُ توبَ معترفِ

طاعة المحبوب والانقياد له، والخضوع التّام للمحبّ لحبيبته، والتّفاني في سبيل الوصول إلى قلبها، بل بعضهم تركنا نلمح نوعاً من العبادة يستسلم فيها الرّجل العاشق إلى سيّدة أفكاره حتّى لو كان في هذا الاستسلام هلاكه. وقد عبّر الشّعراء المشارقة عن الأفكار نفسها كما فعل الشاعر العبّاس بن الأحنف، ولكنّها لم تكن أبداً بمثل هذه القوّة، ولا هذه الكثرة، ولم يكن لها العالميّة نفسها.

إنّ العاشق الجدير بهذا الاسم يعلن نفسه عبداً لمن يحبّ، وهو مسرورٌ بهذا الخضوع[3].

فالحكم الرّبضي الذي أوقع بأهل الرّبض من قرطبة الوقعة المشهورة التي ظهرت فيها قوّته وشجاعته وجبروته حتّى نسب إليها، أصبح ضعيفاً مملوكاً، عبداً لمن يحبّ[4] يقول:

ظلّ من فرط حبّه مملوكاً ولقد كان قبل ذاك مليكا

إن بكى أو شكا الهوى زيد ظلماً وبعاداً يُدني حِماما وشيكا

تركتْه جآذرُ القصر صبّاً مستهاماً على الصّعيد تريكا

يجعل الخدّ واضعاً فوق ترب وهو لا يرتضي الحرير أريكا

---

[1] ينظر: حملاوي. مليكة، أثر الشّعر الأندلسي في شعراء التّروبادور – دراسة مقارنة، رسالة ماجستير، جامعة محمّد خضر – بسكرة، 2013–2015م، ص71.

[2] ابن عبد ربّه، ديوانه، ص130.

[3] ينظر: بيريس. هنري، الشّعر الأندلسي في عصر الطّوائف، ص360.

[4] ينظر: حملاوي. مليكة، أثر الشّعر الأندلسي في شعراء التّروبادور، ص73.

هكـذا يحسـن التّـذلل فـي الحـبْ بِ إذا كـان فـي الهـوى مملوكـا

فالأمير أصبح مملوكاً بعد أن كانَ ملكاً، وهو لا يرى بأساً في هذا التّذلّل والخضوع ، بل هو شيء جميل؛ إذ لا يمكن الوصول إلى قلب المحبوب إلاّ بالخضوع له، والتّوسّل إليه.

ويبدو أنّ هذا التّذلّل في الحبّ والخضوع للمحبوب، أصبح مألوفاً في الشّعر الأندلسي، فنجد الخليفة سليمان الملقّب بالمستعين، يقول؛ من الكامل[1]:

عجبـاً يهـابُ الليـثُ حـدّ سـناني وأهـابُ لحْـظَ فـواتِرِ الأجفـانِ

فأقـارع الأهـوالَ لا متهيّبـاً منهـا سـوى الإعـراضِ والهجـرانِ

وتملّكـتْ نفسـي ثـلاثٌ كالـدّمى زهـرُ الوجـوهِ نـواعِمُ الأبـدانِ..

فـأبحْنَ مـن قلبـي الحِمـى وتركْننـي فـي عِـزِّ مُلكـي كالأسـيرِ العـانِي

لا تعـذلوا مَلِكـاً تـذلّل للهـوى ذلُّ الهـوى عـزٌّ ومِلْـكٌ ثـانِ

مـا ضـرَّ أنّـي عبـدهُنَّ صـبابةً وبنـو الزّمـانِ وهـنَّ مـن عُبـداني

إن لـم أُطِـع فـيهنَّ سـلطان الهـوى كَلَفـاً بهـنَّ فلسـتُ مـن مـروان

وهو في هذه الأبيات متأثّر بأبيات (هارون الرّشيد) كما يذكر ابن بسّام: ".. عارض بها هارون الرّشيد، فشعشَتْ بها الكؤوس، وتهادتها الأنفاسُ والنّفوس. وقد أثبتُّ القطعتين معاً ليُرى الفرق، ويُعرفُ الحقّ.. قال هارون الرّشيد؛ من الكامل:

مَلَـكَ الـثّلاث الآنسـاتُ عنـاني وحلَلْـنَ مـن قلبـي بكـلِّ مكـانِ

مـا لـي تطـاوُعني البريّـةُ كلّهـا وأطـيعُهُنَّ، وهـنَّ فـي عصـياني

مـا ذاك إلاّ أنّ سـلطان الهـوى -وبـه قَـوَيْنَ- أعـزَّ مـن سـلطاني"[2]

في فترة سياسيّة معيّنة بلغت الجواري مبلغاً عظيماً في تسيير أمور الرّعية، وفي التّدخّل في شؤون السّياسة.. فقد كانت قصور كثير من الخلفاء تكتظّ بالجواري اللائي

[1] ابن بسّام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني. الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ت. د. إحسان عبّاس، دار الثّقافة، بيروت – لبنان، 1997م، القسم الأوّل، المجلّد الأوّل، ص47-48.

[2] ابن بسّام، الذّخيرة، القسم الأول، المجلّد الأوّل، ص47.

استولين على قلوبهم بجمالهنّ وظرفهنَّ وما يتقنّه من شعر ورقص وغناء.. وهذا يبيّن سطوة الجواري في ذلك الوقت[1].

يبدو أنّ ابن بسّام معجب بأبيات المستعين، وقد ظهرت معاني الفروسيّة في شعر المستعين بشكل أوضح وأكبر من أبيات هارون الرّشيد، بل إنّ هذا الخضوع والتّذلّل أو الفروسيّة في الحبّ عادةٌ متأصّلة في بني مروان كما أظهر لنا البيت الأخير.

ويصوّر لنا (ابن زيدون) حالته الشّعوريّة القلقة، وتذلّله وخضوعه لولاّدة، فيقول؛ من البسيط[2]:

بيني وبينك ما لو شئتِ لم يضع ... سرٌّ إذا ذاعت الأسرارُ لم يذعِ

يا بائعاً حظّه منّي ولو بُذلَتْ ... ليَ الحياةُ بحظّي منه لم أبعِ

يكفيكَ أنّك إن حمّلتَ قلبيَ ما ... لم تستطعْهُ قلوبُ النّاسِ يستطعِ

تِهْ أحتملْ، واستطلْ أصبر وعزّ أهُنْ ... وولِّ أُقبلْ، وقلْ أسمَعْ، ومُرْ أَطِعِ

ومن ذا الذي يمكن أن يشكّ في أنّ العاشق يصبح عبداً لمن يحبّ حين يقرأ أبيات الخليفة الأموي عبد الرّحمن المستظهر بالله، حين أراد الزّواج من حبيبة ابنة عمّه سليمان المستعين، فقال مخاطباً زوجة عمّه (مُشنف) من الطّويل[3]:

جعلْتُ لها شرطاً عليَّ تعبّدي ... وسقتُ إليها في الهوى مهجتي مهرا[4]

وقوله في بيت آخر، من الطّويل[5]:

وهبْتُ له روحي ومُلكي ومُهجتي ... ونفسي، ولا شيء أعزّ من النّفس

---

[1] ينظر في ذلك: الذّنيبات. عبد الله أحمد / المجالس الشّعريّة والنّقديّة في مجالس هارون الرّشيد، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة – الأردن، 2007م، ص51–66.

[2] ابن زيدون، ديوانه، رسائله، أخباره، شعر الملكين، تح: كامل كيلاني وعبد الرّحمن خليفة، طبع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولادَه، بمصر، ط1، 1932م، ص279.

[3] ينظر: بيريس، هنري، الشّعر الأندلسي في عصر الطّوائف، ص360.

[4] ابن بسّام، الذّخيرة، القسم الأول، المجلّد الأوّل، ص56.

ابن الأبّار، الحلّة السّيراء، 14/2.

[5] المصدر السّابق، 16/2.

أو قول ابن بقيّ؛ من البسيط[1]:

إن كنْـتَ تجهـلُ أنّـي عبـد مملكـةٍ مُرْنــي بمــا شِـئْتَ آتيــه وأمتثــلُ

وجدنا فيما سبق كيف يعدّ الشّاعر العاشق نفسه عبداً لمحبوبه، ويمضي إلى أبعد من ذلك في تبعيّته، حتّى إنّه ينادي حبيبته بلفظ (سيّدي أو مولاي) ويستخدم الشّعراء هاتين اللفظتين كثيراً، ولاسيّما عند ابن حزم، وابن زيدون[2] فقد بالغ الأندلسيّون بذكر خضوعهم للمرأة في أشعارهم، بل أكثر من ذلك فإنّنا نجد من جعلها ترفع شأن المرء معها وتضعه، فها هو ذا ابن زيدون يقول من البسيط[3]:

أرخصــتِني مِــنْ بعــدِ مــا أغْلَيْتِنــي وحَطَطْتِنــي، ولطالمــا أعلَيْتِنِــي..
كنــتِ المُنَــى فــأذقْتِني غُصَــصَ الأذى يــا ليتنــي مــا فُهْــتُ فيــكِ بليتنــي

ونخلص إلى القول: إنّ الأندلسيين ذهبوا بالخضوع إلى المرأة إلى حدّ كبير، وقد عكسوا أفكار مجتمعهم، وكان الحبّ الفروسيّ أو الفروسيّة في الحبّ تعني نوعاً من العبادة يستلم فيه العاشق إلى سيّدة أفكاره استلاماً تامّاً حتّى لو كان في هذا الاستسلام هلاكه.

[1] ابن خاقان، قلائد العقيان، ص924.
[2] ينظر: بيريس. هنري، الشّعر الأندلسي في عصر الطّوائف، ص371.
[3] ابن زيدون، ديوانه، ص273.

الخاتمة:

ارتبطت الفروسيّة بالغزل؛ لأنّ المرأة العربيّة تفضّل الفارس القادر على حمايتها والذّود عنها.. ووجدنا شعراء المشرق قد ربطوا بين فروسيّتهم وغزلهم؛ ليظهروا للمحبوبة أنّهم أهلٌ لها، وجديرون بحبّها.

أمّا في الأندلس ونتيجة لحياة التّرف التي عاشها قسمٌ كبيرٌ منهم، انحسرت روح الفروسيّة، وتحوّلت إلى ظاهرة الأنسيّة، إذ أصبحت الاهتمامات الحربيّة غير ذات أهميّة بالنّسبة إلى القضايا الثّقافيّة والتّأمّلات الفكريّة.

– إنّ الجانب النّفسي، والملمح القلق فضلاً على التّرف الأسطوري؛ هذه السّمات أثّرت – بشكل كبير – في أشعار الأندلسيين وصورهم، فكنّا نلمح الرّوح الحربيّة في بعض أشعارهم الغزليّة، كما كنّا نجد صورة الحياة المترفة في وصف معاركهم....

كما أنّ الشّخصيّة المزدوجة كنّا نجدها في غزل فرسانهم، فهو الشّجاع المقدام الذي لا يهاب الموت أمامَ أعدائه، ولكنّه في مواقف الهوى وأمام حبيبته وديع هادئ ضعيف..

وكما في الأندلس، كذلك في المشرق، مع ظهور النّزعة الذّاتيّة في الغزل المشرقي بشكل لافت.

– شاع في الأندلس الغزل العفيف أو ما أسموه بالفروسيّة، أو الحبّ الفروسيّ الذي يمجّد المحبوبة، والذي يعني نوعاً من العبادة يستسلم فيه العاشق إلى سيّدة أفكاره حتّى لو كان في هذا الاستسلام هلاكه، وقد أثّر كثيراً في الأدبين الإسباني والفرنسي ثم انتشر هذا التّأثير في إيطاليا وألمانيا وإنجلترا..

وقد عبّر الشّعراء المشارقة عن الأفكار نفسها كالعبّاس بن الأحنف، ولكنّها لم تكن أبداً بمثل هذه القوّة، ولا هذه الكثرة، ولم يكن لها العالميّة نفسها..

فقد بالغ الأندلسيّون كثيراً بذكر خضوعهم للمرأة في أشعارهم، ولا غرو في ذلك فقد بلغت المرأة الأندلسية مكانة مرموقة في المجتمع الأندلسي.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: الكتب:

1- ابن الأبّار. أبو عبد الله محمّد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (1985م). **الحلّة السّيراء**، تح: د. حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2.

2- ابن بسّام، أبو الحسن علي بن بسّام الشّنتريني (1997م). **الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تح: د. إحسان عبّاس، دار الثّقافة، بيروت – لبنان.

3- بومزار، فوزيّة (1986م). **مفهوم الفروسيّة في التّراث العربيّ وأثره في القرون الوسطى في أوروبا**، الموسوعة الصّغيرة، مطابع دار الشّؤون الثقافيّة العامّة، العراق.

4- بيريس، هنري (1988م). **الشّعر الأندلسي في عصر الطّوائف- ملامحه العامّة وموضوعاته الرّئيسيّة وقيمته التّوثيقيّة**، تر: د. الطّاهر أحمد مكّي، دار المعارف، القاهرة – مصر، ط1.

5- الجاحظ، عمرو بن بحر (1938م). **الحيوان**، تح: عبد السّلام هارون، مصر، ط1.

6- الحمداني، أبو فراس (1994م). **ديوان أبي فراس الحمداني**، تح: د. خليل الدّويهي، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط2.

7- ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمّد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي (1989م). **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، تح: د. حسين خريوش، مكتبة المنار للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الزّرقاء-الأردن.

8- ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمّد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي (1983م). **مطمح الأنفس ومسرح التّأنس في ملح أهل الأندلس**، تح: محمّد علي شوابكة، دار عمّار ومؤسسة الرّسالة، بيروت – لبنان، ط1.

9- ابن درّاج (1961م). **ديوان ابن درّاج**، تح: د. محمود علي مكّي، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق – سورية، ط1.

10- ابن زيدون (1932م). **ديوانه، رسائله، أخباره، شعر الملكين**، ت: كامل كيلاني وعبد الرّحمن خليفة، طبع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولادَه، بمصر، ط1.

11- ابن سعيد (د.ت). **المُغرب في حُلى المغرب**، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2.

12- سلامة، د.يسري محمّد (د.ت). **الأدب الأندلسيّ – صور فنيّة واجتماعيّة**، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة – مصر.

13- ابن شدّاد، عنترة (د.ت). **ديوان عنترة بن شدّاد**، تح: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط2.

14- د. ضيف، شوقي (د.ت). **تاريخ الأدب العربي – عصر الدّول والإمارات الأندلس**، دار المعارف، القاهرة، مصر.

15- ابن عبّاد، المعتمد (د.ت). **ديوان المعتمد بن عبّاد**، ت: أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، بإشراف الدّكتور: طه حسين، المطبعة الأميريّة، القاهرة – مصر.

16- ابن عبد ربّه (1987م). **ديوان ابن عبد ربّه**، تح: د. محمّد رضوان الدّاية، دار الفكر، دمشق – سورية، ط2.

17- د. عمران، عبد اللطيف (1999م). **شعر أبي فراس ودلالاته وخصائصه الفنّيّة**، دار الينابيع، دمشق – سورية.

18- غومس، إميليوغرسيه (1969م). **الشّعر الأندلسي – بحث في تطوّره وخصائصه**، تر: حسين مؤنس، مطبعة النّهضة المصريّة، القاهرة، مصر، ط3.

19- ابن قيّم الجوزيّة. شمس الدّين أبو عبد الله (1996م). **الفروسيّة المحمّديّة**، تح: أبي عبيدة مشهور، دار الأندلس، ط2.

20- كحيلة، عبادة (2001م). **أندلسيّات**، القاهرة – مصر، ط2.

21- المتنبّي، أحمد بن حسين الجعفي (1983م). **ديوان المتنبّي**، دار بيروت للطّباعة والنّشر، بيروت – لبنان.

22- المقرّي، أحمد بن محمّد التّلمساني (1968م). **نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب**، تح: د. إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت–لبنان.

23- د. موافي، عثمان (1994م). **في نظريّة الأدب من قضايا الشّعر والنّثر في النّقد العربيّ القديم**، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، مصر.

24- د. هلال، محمد غنيمي (د.ت). **الأدب المقارن**، دار العودة ودار الثّقافة، بيروت – لبنان، الطّبعة الخامسة.

ثانياً: المجلات:

1- ابن سلامة، الرّبعي. **من شعر الفروسيّة في الأندلس**، مجلّة جامعة قسطنطينيّة للعلوم الإنسانيّة، العدد الرّابع.

ثالثاً: الرسائل:

1- اللهيبي، منى بخيت بن عويد. **الفروسيّة في الشّعر بين أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ – دراسة موازنة**، رسالة ماجستير، المملكة العربيّة السّعوديّة، جامعة أمّ القرى، 2008 م.

2- بوزقزة، أمال؛ وعلالي، جوهر. **الفروسيّة في الشّعر العربيّ – الأمير عبد القادر أنموذجاً**، الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة، المركز الجامعي أكلي محمّد أولحاج، 2011-2012 م.

3- حملاوي، مليكة، **أثر الشّعر الأندلسي في شعراء التّروبادور – دراسة مقارنة**، رسالة ماجستير، جامعة محمّد خضر – بسكرة، 2013-2015م.

4- الذّنيبات، عبد الله أحمد. **المجالس الشّعريّة والنّقديّة في مجالس هارون الرّشيد**، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة – الأردن، 2007م.

5- رجب باشا، جمانة. **الأندلسيّة وأثرها في أدب الأندلس حتّى نهاية عصر الموحدين**، رسالة ماجستير، جامعة حلب، 1996م.

رابعاً: المحاضرات:

1- د. جمعة، وفاء. **الشّعر الأندلسي (محاضرات ألقيت على طلاّب السّنة الثّالثة، قسم اللغة العربيّة، جامعة تشرين)**، اللاذقية – سورية، 2019-2020 م.

خامساً: مواقع الانترنت:

1- السّيّد، شاكر صبري محمّد. **أشعار الغزل والوصف عند شعراء الفروسيّة العرب**، الشّعر والشّعراء، معين المعرفة.

2- مخيبر، روان. **الفروسيّة في الشّعر العربيّ**، موضوع، 13 مايو 2022 م

3- مهنّا. يسرى ناصر. **التّأثير العربي على شعر التّربادور**، الشّرق، 8/مارس/2015